جمهورية مصر العربية
جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

٢٤٠٥
٨٤١٤

للعمد
السادة أعضاء اللجنة
١- مصطفى السوكي
٢- محمد رمضاني
رئيس اللجنة
مصطفى السوكي
١٩٩١/٨/١٧

كتاب شرح البديعية لابن حجة الحموي

المسمى

"خزانة الأدب من كل فن منتخب"

٨١١
ع.ع

تحقيق:
الطالب/ عبد الله عبيد شحدة الصوفي ٨٠٥٢
إشراف الأستاذ الدكتور/ مصطفى الشكعة

١٤١١هـ/ ١٩٩٠م

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي

المجلد الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

نفي الشيء بإيجابه

لاينتفي الخيرُ من إيجابه أبدا ولا يشينُ العطا بالمَنِّ والسَّأمِ

نفي الشيء بإيجابه : هو أن يُثبت المتكلمُ شيئا في ظاهر كلامه ، وينفي ما هو من سببه مجازا ، والمنفيُّ في باطن الكلام حقيقةٌ هوالذي اثبته كقوله تعالى : " ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع " (١) ، فإن ظاهر الكلام نفي الذي يطاع من الشفعاء ، وا لمراد نفي الشفيع مطلقا ، وكقوله تعالى : " **لا يسئلون الناس إلحافا** " (٢) ، فإن ظاهر الكلام نفي الإلحاف في المسألة ، والباطن نفي المسألة بتة وعليه إجماع المفسرين .

وذكر ابن أبي الإصبع (٣) في كتابه المسمّى بتحرير التحبير أنه منقول عن ابن عباس رضي الله عنه . وهذا هو الحدّ الذي قرره ابن رشيق (٤) في العمدة ، فإنه قال : نفي الشيء بإيجابه إذا تأملته وجدت باطنه نفيا ، وظاهره إيجابا ، واستشهدوا عليه بقول زهير :

بأرض خلاء لا يُسدُّ وصيدُها عليَّ ومعروفي بها غيرُ منكرِ

فأثبت لها في الظاهر وصيدا ، ومراده في الباطن : أن ليس لها وصيد فيُسدّ .

وألطفُ ما رأيتُ من شواهد هذا النوع - أعني نفي الشيء بإيجابه - قول مسلم بن الوليد (٥) :

لا يعبقُ الطيبُ خدّيه ومفرقه ولا يُمسّحُ عينيه من الكحلِ

فإن ظاهر الكلام نفيُ عبقِ الطيب ومسحِ الكحل ، والمراد نفي الطيب والكحل مطلقا ومثله قول أبي الطيب المتنبي : (٦)

---

(١) غافر ٤٠ آية ١٨ .
(٢) البقرة ٢ آية ٢٧٣ .
(٣) ترجمته : صـ ٢ .
(٤) ترجمته : صـ [illegible] .
(٥) ترجمته : صـ [illegible] .
(٦) ديوان المتنبي : صـ ٤٤٩ .

أفـدي ظباءَ فلاةٍ ما عَرَفْنَ بهـــــا مضغَ اللثامِ (أ) ولا صَبْغَ الحواجيبِ

ولا بَرَزْنَ من الحمَّامِ مائلـــــــةً أوراكُهُـنَّ صقيلاتِ العراقيـــبِ (١)

فـإنَّ ظـاهر الكـلام عَدَمُ بروزهـن من الحمَّام على تلك الهيئات ، والمرادُ في باطن الكلام عدمُ الحمَّام مطلقـا ، فإنهـنَّ عربياتٌ كظباءِ الفلاة ، ولهـذا قال ذو الرُّمة (٢) :

باللـه ياظبياتِ القاعِ قُلْنَ لنـــــا ليـلايَ منكنَّ أم ليلى من البشـرِ

والقصـدُ أن حسنَهـنَّ لم يفتقـر إلى تصنُّـعٍ ولا إلى تطريبةٍ بدخول حمَّام .

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته على هذا النوع - أعني نفي الشيء بإيجابه - يقـول فيه عن النـبي صلى اللـه عليه وسلـم : (٣)

لا يهـدمُ المَنَّ منه عُمْرُ مكرمَـةٍ ولا يسـوءُ أذاهُ نفسَ مُتَّهَـــمِ (٤)

فظـاهر الكـلام في بيت الشيخ صفي الدين الحلي أن النبي صلى اللـه عليه وسلم لا يتبع المكرمة بمـنٍّ وحـاشاه من ذلك ، ولا يصـدر منه لنفـس متهـم إسـاءة .

والمـراد في الباطن نفي المن والإساءة مطلقا ، فإن مقـام النبي صلى اللـه عليه وسلم في الكـرم والحلـم فـوق ذلـك . والعميـان لم ينظمـوا هـذا النـوع في بديعيتهـم ، وبيت الشيخ عز الديـن - غفـر اللـه لـه - يقـول فيه عن النبي صلى اللـه عليه وسلم :

لـم ينفِ ذمّاً بإيجـابِ المديح فـتى إلا وعاقدتُ فيه الدهرُ بالسَّلـمِ

هـذا البيت ليـس له تعلُّـقٌ بهـذا النوع ، فإن مشايخ البـديع تواردوا في حَدِّهِ على عبارة واحـدة لم تختلـف بحـرف ، بل الجميع قالوا : نفيُ الشيءِ بإيجابه هو أن يثبت المتكلم شيئا في ظاهر كـلامـه وينفي مـاهو من سببـه مجـازا ، والمنفي في باطن الكلام حقيقةً هو الذي أثبته .

وأورد وا على ذلك ما تقدم من شواهد القـرآن العظيم ، والشواهد الشعرية التي زادت النوع إيضاحًا

(أ) كذا في (الأم ، أ ، ب) : وفي النسخة المطبوعة : " مضغ الكلام " ، وهو الأصوب .

.....

(١) رواية البيت في الديوان

ولا برزن من الحمام مائلـــــــة أوراقهـن صقيلات العراقيـــب

(٢) تـرجمتـه : صـ ٨ .

(٣) ديـوانه : صـ ٦٩٢ .

(٤) في الديوان : " نفـس مؤتهـم " .

ولـم يتضح لي في بيت الشيخ عـز الدين - غفر اللـه له - لمعةٌ أستضيءُ بهـا في ظلمة هـــذه العقـادة إلى تقرير هـذا النوع في البيت المذكـور ، فلم يسعني غير النظر في شرحه ، فوجدتُه قـــد قـال : ما نَفَى الذَّمَّ بإيجـاب المـديح كـريمٌ إلاّ وكـان النبيُّ صلى اللـه عليه وسلم قد عاقد الدهر بالسّلم على ذلك المعـنى قبـل الذي فَعَـلَ هـذا الفِعْـلَ المحمـود ، فإنه هـو الأصل في الأسبـاب الخيريـة جميعهـا . فما علمتُ من (أ) مـرادِه في النظم ولا في الشرح ، ولا أين استقـر نفي الشيءِ بإيجابـــه واللـه أعلـم .

وبيـت بـديعيـتي أقـول فيه عن النـبي صلى اللـه عليه وسلـم :

لا ينتفي الخيـرُ من إيجـابه أبـــدا ولا يَشِينُ العطـا بالمَنِّ والسَّـأَمِ

الذي أقـوله : إنّ محـاسن هـذا البيت - ببركة ممدوحه - صلى اللـه عليه وسلم يُغـني عن التطويـل في شـرحه ، وسـهـولةُ مأخـذ النـوع منـه لم يفتقـر (ب)إلى زيادة إيضاح ، وما أحقه بقـول القائل : (ا)

وقـد ظهـرتَ فـلا يَخفى على أحـــدٍ إلاّ على أَكْمَهٍ لا يعـرفُ القمـــرا (جـ)

(أ) كـذا في (الأم ، أ ، ب) ، وفي النسخة المطبوعة : " فما علمت مـا .. " ، وهو الأصوب .

(ب) كـذا في (الأم ، أ ، ب) ، وفي النسخة المطبـوعة : " لم تفتقـر " .

(جـ) كذا في (الأم ،أ ،ب) ، وفي النسخة المطبوعة : " فلا تخفى " ،وهو الأصوب .

(ا) لم أعثر على القائل .

الإيغـــال

للجـود في السَّير إيغـــالٌ إليه وكـــــمْ حبـــا الأنـــامَ بـــودٍّ غيـــرِ مُنْصَـــرِمِ

هـــذا النوع مأخـــوذ من إيغـــالِ السيـــر ، فإنه يُقـــالُ : أوغل في السير ، إذا بلغ غايةَ قصدهِ بسرعةٍ ولـهـذا قلتُ : للجـود في السير إيغـــال إليـه ... البيت .

ومعنى ذلك أن المتكلـم أو الشاعر إذا انتهى إلى آخر القرينة أو البيت استخـرج سجعة أو قافية تزيـــد معـنى زائـــدا في كـل منهمـــا .

فكـــأن المتكلـــم أو الشاعر قد تجـاوز حـدّ المعـنى الذي هو آخذ فيه ، وبلغ مراده فيه إلى زيادة عن الحد. وهـــذا النـوع مما فَرَّعه قـدامةُ (١) وفسَّـره بأن قـال : هـو أن يستكمل الشاعر معنى بيتـه بتمامه قبل أن يأتي بقافية ، فإذا أراد الإتيـــان بها ليكـون الكـلامُ شعراً ، أفـاد بها معـنى زائدا على معنى البيت (٢) كقـول ذي الرُّمـة (٣) : (٤)

قفِ العيسَ في آثـارِ ميَّةَ وأســـــــأل رســـومًا كأخـلاقِ الرِّداءِ المسلســـل (٥)

فتـم كلامه قبـــل القافية ، فلما احتاج إليها أفاد بها معنى زائدا ، وكذلك صنع في البيت الذي بعده حيـــث قـال : (٦)

أظـــن الذي يُجـدي عليك سـؤالُهـــا دمـــوعًا كتبـديدِ الجُمان المفصَّلِ (*)

فانه تم كلامه بقوله : كتبـديد الجمان ، واحتاج إلى القافية ، فأتى بهـا تفيد معنى زائدا ، لو لم يأت بها لم يحصـل ، انتهى .

---

(١) ترجمـــة قـدامة : صـــ ١٥٨ .
(٢) العبارة بمعناها في نقـد الشعر : صـــ ١٦٨ .
(٣) ترجمتـه : صـــ ٨ .
(٤) البيت له في نقد الشعر : صـــ ١٦٩ ، وله في حسـن التوسل صـــ ٢٦١ .
(٥) في نقـد الشعـر : " في أطـلال ميـة فاسـأل "
(٦) البيت لذى الرمة في نقد الشعر ١٦٩ ، وله في حسـن التوسل ٢٦١ .
(*) الجمـان : اللـؤلـؤ ، واحـدته : جمانة . القامـوس المحيـط : جمـان .

والفرق بين الإيغال والتتميم ، أن التتميم يأتي إلى المحتاج فيتممه كقول الشاعر وقد تقدم :(١)

أُناس إذا لم يُقْبَلِ الحقُّ منْهُمُ ويُعْطَوْهُ غُصْبًا بالسيوفِ القواضبِ

فإن المعنى بدون قوله : ويعطوه ناقص ، والإيغال لا يرد إلا على المعنى التام فيزيده كمالا ويفيد فيه معنى زائدا . غير أن بين الإيغال والتكميل تجاذبا يكاد أن ينظم كلا منهما في سلك الآخر ، ولكنْ رأيتُ الناس قد سلّموا إلى قدامة ما اختاره وفرّعه هنا ، فمشيتُ مع الناس .

واستشهدوا على الإيغال بقوله تعالى : " أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسنُ من الله حكما لقوم يوقنون " (٢) ، فإن الكلام تم بقوله تعالى : " ومن أحسن من الله حكما " ، ثم احتاج الكلام إلى فاصلة تناسب القرينة الأولى ، فلما أتى بها أفاد معنى زائدا .

قلت : ولعمري لو طلب التكميل حقّه من هذا الشاهد لم يمنعه الذوق السليم ، ومثله قوله تعالى : " ولا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدعاءَ إذا ولَّوا مدبرين " (٣) . وقد حُكِيَ عن الأصمعي (٤) أنه سُئِلَ عن أشعر الناس ، فقال :الذي يأتي إلى المعنى (أ) الخسيس فيجعلُه بلفظه كثيرا ، وينقضي كلامه قبل القافية فإن احتاج إليها أفاد معنى زائدا ، فقيل له : نحو من ؟

فقال : نحو الفاتح لأبواب المعاني وهو امرىء القيس حيث قال : (٥)

كأنّ عيونَ الوحشِ حولَ خبائنا وأرحلنا الجزعُ الذي لم يُثَقَّبِ (٦)

---

(١) أشرنا لهذا البيت في باب التتميم .

(٢) المائدة ٥ آية ٥٠ .

(٣) الروم ٣٠آية ٥٢ .

(٤) ترجمته : صـ ٤٤ .

(٥) العبارة للأصمعي في نقد الشعر : صـ ١٦٩ .

(٦) ديوان امرىء القيس : صـ ٥٣ من قصيدة مطلعها :

خليلي مُرّابي على أم جُنْدُبِ نقضِّ لبانات الفؤادِ المُعَذَّبِ

شرح ديوان زهير : صـ ١٢ .

ومثلـه قـول زهيـر :

كأن فُتـاتَ العِهْـنِ في كـلِّ منـــزلٍ نَـزَلْـنَ بـه حَـبُّ الفنـا لم يُحَطَّـــمِ

فكـلام امـرىء القيـس انتهى الى قـوله : الجـزع ، وزيادة المعنى في قوله :

" الذي لـم يثقـب " لايخفى على حُـذّاق الأدب ما فيها من المحاسن .

ومعنى قـول زهير انتهى في كـلامه إلى قـوله : " حـب الفنـا " ، وزيادة المعنى في قـوله : لـم يحطـم فيها نكتـة بـديعـة غـريبة ، وأنا أذكـرها هنـا تنبيها على ماقـرره الأصمعي ، وما ذاك إلا أن زهيـرا شَبّه ما تفتـتَ من العهـن بحب الفنـا ، والفنا شجر ثمره حَبٌّ أحمر وفيه نقط سود ، وقال الفراء (١) : هـو عنـب الثعلـب ، فلما قـال زهيـر بعـد تمـام معـنى بيتـه : لـم يحطـم ، أراد أن يكـون حب الفنـا صحيحـا ، لأنـه إذا كُسِرَ ظهـر لـه لـون غيـر الحمرة .

وقال ابن أبي الإصبـع (٢) في كتـابه المسمـى بتحـرير التحبيـر :

ولقـد أحسـن ابن المعتـز (٣) في إيغاله بقـوله لابن طباطبـا العلـوي (٤) :

فأنتـم بنـو بنتـهِ دونـنـــــا ونحـنُ بنـو عمِّـه المسلِـــــمِ

فإنه تحيّـل على المساواة ، إذ لا طـريق لـه إلى التفضيـل بأن قـال : ونحن بنو عمه المسلـم (٥) والكلام تم قبل الإتيان ، بالقافية ، فلما أتى بها أفادت معـنى ليـس لـزيادتـه في الحـسن حـد .

---

(١) تـرجمتـه : صـــ ٦٣ .
(٢) تـرجمتـه : صـــ ٣ .
(٣) تـرجمتـه : صـــ ٤ .
(٤) تـرجمتـه : صـــ ٤٠١ .
(٥) تحـرير التحبيـر صـ ٢٣٦ .

والذي وقع اتفاق البديعيين عليه : أن أعظم ما وقع في هذا الباب وأبلغ قول الخنساء (١) أخت صخر (٢) :

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداةُ به ... كأنه علمٌ في رأسه نارُ

فإن معنى جملة البيت كامل دون القافية ، فوجودها زيادة لم تكن له قبلها ، وهذه المرأة لم ترض لأخيها بأن تأتمّ به جُهّالُ الناس حتى جعلته تأتم به أئمة الناس ، وهذا تتميم ، ولم ترض تشبيهه بالعَلَم وهو الجبل المرتفع المعروف بالهداية حتى جعلت في رأسه ناراً .

ويعجبني من أمثلة هذا النوع في شعر المتأخرين قول الباخرزي (٣) من قصيدة :

أنا في فؤادك فارم طرفك نحوه ... ترني فقلت لها : وأين فؤادي

ومثله قول الآخر : (٤)

تعجّبتْ من ضَنى جسمي فقلتُ لها : ... على هواك فقالت : عندي الخَبَرُ

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي يقول فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم :

كأنّ مرآهُ بدرٌ غيرُ مستتر ... وطيبَ ريّاهُ مِسْكٌ غيرُ مُكْتَتَمِ (*)

الإيغالُ مع الشيخ صفي الدين في : غير مستتر ، وغير مكتتم .

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم ، وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعيته يقول فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (٥)

أضحتْ أعاديه في الأقطار طائرةً ... وأوغلتْ في الهوى خوفاً من العِصَم (٦)

قال الشيخ عز الدين - غفر الله له - في شرحه : إن الإيغال الذي أفاد في بيته معنى زائدا بعد تمامه قوله : خوفا من العصم ، وذكر أن العِصَمَ : هو الجوارحُ من الطيور التي تُفَرِّخُ في العوالي ، والله أعلم . وبيت بديعيتي أشير فيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم :

للجود في السَّير إيغالٌ إليه وكم ... حبا الأنامَ بودٍّ غير منصرم (٧)

فمعنى بيتي انتهى إلى قولي عنه - صلى الله عليه وسلم - حبا الأنام بود ، ولما قلت بعد ذلك : غير منصرم إشارة إلى ود النبي صلى الله عليه وسلم ظهر لي من زيادة المعنى ما أقام قواعد بيتي ، وملأ الدنيا بهجة . بمحاسن الصفات النبوية ، والله أعلم .

---

(١) ترجمتها : صـ ٦٢ . (٢) ترجمته : صـ ٩٢ .
(٣) أبو الحسن علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي ، تفقه على المذهب الشافعي وبرع في الشعر والنثر ومارس الكتابة ، ومن مؤلفاته : " دمية القصر " ، مات مقتولا سنة ٤٦٧ هـ . وفيات الأعيان ٣ / ٦٦ .
(٤) البيت في حسن التوسل صـ ٢٦٣ بلا نسبة ، وفي نهاية الأرب ٧ / ١٣٩ بلا نسبة .
(٥) نفحات الأزهار : صـ ٢٧٢ .
(٦) في المرجع السابق : " خوفا مع العصم " .
(٧) منصرم : منقطع . القاموس المحيط : صرم .
(*) الرّيا : الريح الطيبة . القاموس المحيط : روي .

التهـــذيب والتـــأديـــب

تهـذيبُ تأديبهِ قـد اده عِظَمـًـا في مهـدهِ وهـو طفـلٌ غيـرُ مُنْفَطِـمِ

نوع التهـــذيب والتأديـــب ماقرروا له شاهـدا يخصه ، لأنـه وصف يـعم كل كلام منقح محـرر • وهـــو عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله ، والشروع في تهذيبه وتنقيحه نظما كان أو نثرا ، وتغييـــرٌ مايجب تغييرُهُ وحذف ما ينبغي حذفه ، وإصلاحُ ما يتعين اصلاحُه ، وكشف ما يشكل من غريبه وإعـرابـــه وتحـرير ما يـدق من معـانيه ، واطـراح ما يتجافي عن مضـاجع الرّقة من غليظ ألفاظه ، لتشرق شمـوسُ التهذيب في سماء بلاغته ، وترشـف الأسمـاع على الطرب رقيقَ سلافتهِ •

فإن الكلام إذا كان موصوفا بالمهـذب منعـوتا بالمنقح علت رتبتـه ، وإن كانت معانيه غير مبتكرة • وكل كلام قيل فيه : لوكان موضع هذه الكلمة غيرها ، أولوتقـدم هـذا المتأخـر ، وتأخر هـذا المتقدم ، أولـو تمم هـذا النقص بكـذا ، أو تكمل هذا الوصف بكـذا أولو حـذفت هـذه اللفظة أو لو اتضح هـذا المقصـــد وتسهّـل هـذا المطلـب لكـان الكـلام أحســن والمعـنى أبيـن ، كان ذلك الكلامُ غيرَ منتظم في سلـك نوع التهـذيب والتأديـب •

وكـان زهيـر بن أبي سلمى (١) معروفا بالتنقيـح والتهـذيب ، وله قصائد تعرف بالحوليـات قيل: إنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر ، ويهـذبها وينقحهـا في أربعة أشهـر ، ويعـرضها على علماء قبيلته أربعة أشهـر ، ويروى أنه كان يعمل القصيدة في شهر ، وينقـحها ويهـذبها في أحـد عشر شهرا ولا جـرم أنـه قلما يسقط منـه شـيء •

ولهـذا كان الإمـام عمـر بن الخطاب رضي اللـه عنـه - مع جـلالته في العلم وتقدمه في النقـــد - يقـدمه على سـائر الفحـول من طبقـته ، وما أحســن ما أشـار إليه أبـو تمـام إلى التهـذيـــب بقـوله :

خذها ابنةَ الفكرِ المهذّبِ في الدُّجى والليلُ أسودُ رقعةَ الجلبـــــاب

---

(١) تـرجمتـه : صـــ ١٤٨ •

فإنه خَصّ تهذيبَ الفكر بالدّجى لكون أن الليلَ تهدأ فيه الأصوات ، وتسكن الحركات فيكونُ الفكرُ فيه مجتمعا ، ومرآةُ التهذيب فيه صقيلةً لخلوِّ الخاطر ، وصفاء القريحة ، لاسيما وسط الليل والنَّفْسُ قد أخذتْ حظها من الراحة بعد نيل قسطها من النوم ، وخفّ عليها ثقلُ الغذاء ، وصحّ ذهنها ، وصار صدرُها منشرحا ، وقلبها بالتأليف منبسطا .

وما قدّموا وسطَ الليل في التأليف على السّحر مع مافيه من رقّة الهواء ، وخِفّة الغذاء ، وأخذِ النفس سهمها من الراحة ، الا لما يكون فيه من انتباه أكثر الحيوان الناطق ، وارتفاع معظم الأصوات ، وجرس الحركات ، وتقشّع الظلماء بطلائع الأضواء ، وبدون ذلك ينقسم الفكر ، ويشتغل القلب ، ووسط الليل خال مما ذكرناه ، ولهذا خص أبو تمام تهذيب الفكر بالدجى عادلا عن الطرفين لما فيهما من الشواغل المذكورة .

وحكت الثّقاتُ عن أبي عبادة البحتري (١) الشاعر ، قال : كنتُ في حداثتي أروم الشعر وكنت أرجع فيه إلى طبع سليم ، ولم أكن وقفت له على تسهيل مأخذٍ ووجوه اقتضاب حتى قَصَدْتُ أبا تمام وانقطعتُ إليه واتكلتُ في تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لي : تخيَّر الأوقاتَ وأنت قليلُ الهموم صِفْرٌ من الغيوم ، واعلم أن العادة في الأوقات إذا قصد الانسان تأليف شيء أو حفظه أن يختار وقتَ السَّحر ، وذلك أن النفس تكونُ قد أخذتْ حظها من الراحة ، وقسطها من النوم ، وخف عنها ثقل الغذاء ، وصفى من أكثر الأبخرة والأدخنة جسمُ الهواء ، وسكنتْ الغمائمُ ، ورقّتْ النسائمُ ، وتغنت الحمائمُ .

وإذا شرَعْتَ في التأليف تغنَّ بالشعر ، فإن الغناءَ مضمارُهُ الذي يجري فيه ، واجتهد في إيضاح معانيه ، فإن أردت التشبيب اجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأَكْثِرْ فيه من بيان الصَّبابة وتوجع الكآبة وقلق الأشواق ولوعة الفراق والتّعلّل (أ) باستنشاق النسائم ، وغناء الحمائم ، والبروق اللامعة ، والنجوم الطالعة ، والتبرم من العُذّال ، والوقوف على الأطلال . وإذا أخذتَ في مدح سيّدٍ فأشْهِرْ مناقبه وأظهر مناسبه ، وأرهف من عزائمه ، ورغِّب في مكارمه ، واحذر المجهولَ من المعاني في تأليف الكلام ، وكُنْ كأنك خيّاطٌ تقدر الثياب على مقادير الأجسام وإذا عارضك الضَّجَرُ فأرح نفسك ، ولاتعمل إلا وأنت فارغُ القلب ، ولا تَنْظِمْ إلا بشهوة ، فإن الشهوة نِعْمَ المعينُ على حُسْنِ النظم .

(أ) في (ب) : " والتقلق " ، وما أثبتناه من (الأم ، أ) ، وهو الأصوب .

.....

(١) ترجمته : صـ ٥ .

وجملةُ الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من أشعار الماضين ، فما استحسنَ العلماءُ فاقصده ، وما استقبحوه فاجتنبه ، انتهت وصيةُ أبي تمام .

وأورد العلّامة ابن أبي الإصبع في كتابه المسمى بتحرير التحبير وصيةً لنفسه أوردها أيضا على نوع التهذيب والتأديب ، فاخترت منها ماهو لائق بالحال وأولها :

ينبغي لك أيها الراغبُ في العمل ، السائلُ عن أوضح السبل ، أن تُحصِّلَ المعنى قبلَ الشروع في النظم ، والقوافي قبلَ الأبيات . قلت : وهذا مذهبنا .

ثم قال ابن أبي الإصبع : ولا تُكرِه الخاطر على وزن مخصوص وروِيٍّ مقصود ، وتوخَّ الكلامَ الجزلَ دون الرذل ، والسهلَ دون الصعب ، والعذبَ دون المستكره ، والمستحسنَ دونَ المستهجن .

ولا تعمل نظما ولا نثرا عند الملل ، فإن الكثيرَ معه قليلٌ ، والنفيسَ معه خسيسٌ ، والخواطرَ ينابيعُ إذا رُفِقَ بها جَمَّتْ ، وإذا كُثِّرَ استعمالها نَزَحَتْ . واكتب كُلَّ معنى يسنح ، وقَيِّدكل فائدةٍ تَعْرِضُ ، فإن نتائجَ الأفكار كلمعة البرق ولمحة الطَّرف ، إن لم تقيِّدها شَرَدَتْ ونَدَّتْ ، وإن لم تُسْتَعْطَفْ بالتكرار عليها صَدَّتْ ، والتَّرنُّمُ بالشعر مما يعينُ عليه ، فقد قال الشاعر : (١)

تغنَّ بالشعر إما كنْتَ قائلَهُ ... إنَّ الغناءَ لقولِ الشِّعرِ مضمارُ (٢)

وقد يكلُّ خاطرُ الشاعر ، ويعصى عليه الشعرُ زماناً ، كما رُوِيَ عن الفرزدق (٣) أنه قال : لقد يمرُّ عليَّ زمان وقلع ضرس من أضراسي أهونُ عليَّ من أن أقول بيتا واحداً . وإذا كان كذلك فاتركه حتى يأتيك عفوا ، وينقادَ إليك طوعا ، وإياك وتعقيدَ المعاني وتقصيرَ الألفاظ .

وتوخَّ حُسْنَ النَّسقِ عند التهذيب ليكون كلامك بعضه آخذٌ بأعناق بعض ، وكرِّر التنقيح وعاود التهذيب ، ولا يخرج عنك ما نظمته إلا بعد تدقيق النقد ، وإنعام النظر ، انتهى . (٤)

---

(١) البيت في البديع لابن منقذ صـ ٤٠٤ منسوب لحسان بن ثابت وبعده قوله :

نَمِيزٌ ساقطَهُ منهُ ونعزِلُهُ ... كما يُمَيِّزُ خَبَثَ الفضةِ النَّسَّارُ

والبيت في تحرير التحبير صـ ٤١٣ بلا نسبة .

(٢) في البديع لابن منقذ : " إن الغنى لهداة الشعر مضمار " .

(٣) ترجمته صـ ١٠٢ .

(٤) انظر وصية زكي الدين ابن أبي الإصبع في : تحرير التحبير : صـ ٤١٢ .

قلتُ : وهذا لعمري هو المرادُ من النوع الذي نحن في شرحه - أعني التهذيب والتأديب - لا كقول الفرزدق :

وما مِثْلُهُ في النّاسِ إلاّ مملّكاً ... أبو أُمِّهِ حيٌّ أبوهُ يُقارِبُهُ

فإن الممدوح إبراهيم بن هشام (١) بن عبد الملك (أ) ، وأما التقديم والتأخير ففي قوله : وما مثله ... البيت ، لأن تقديرَهُ : وما مثلُهُ في الناس حيٌّ يقاربُهُ إلا مملكاً أبو أُمِّه أبوه . وسلوك طريق التعقيد في قوله : أبو أمه أبوه ، وكان يجزيه قوله : جده . وهذا لعمري هو التعقيد الذي بينه وبين التهذيب والتأديب الذي قررناه بُعْدُ المشرقين . وقد تقدم قولي : إن البديعيين أجمعوا على أن هذا النوع ليس له شاهد يخصه لأنه وصفٌ يعمُّ كل كلام منقَّحٍ ، فاختصرت الشواهد ليظهر للمتأمل من أحرز قصبات السبق من نُظّام البديعيات في هذا النوع - أعني - التهذيب والتأديب . ولكن رأيت العلّامة ابن أبي الإصبع قد استحسن من الشواهد اللائقة على هذا النوع قول القاضي السعيد ابن سناء الملك (٢) :

تَغَنَّى عليها حُلْيُها طرباً بها ... وفاحتْ فقلنا : هذه الروضةُ الغنّا

قال - وقوله صحيح : لو لم يُقَدَّمْ في صدرِ البيت لفظةٌ مشتقةٌ من الغناء حصل بها في البيت من الرونق مالا يَحْسُنُ بدونها كان البيت خاليا من التهذيب . فإن بوجودها حصل في بيته تصديرٌ وتجنيسٌ ، وائتلافٌ وتهذيب ، وانتفى عنه من العيوب عدمُ الائتلاف وقلقُ القافية ، وبذلك تقدم التهذيب ، فإنه لو قال :

زَهَتْ بأزاهيرِ الجَمالِ وحسنِها ... وفاحتْ فقلنا : هذه الروضةُ الغنّا

لظهر قلقُ القافية ، وتمكينُ تلك الأولى بسبب تصدير البيت بقوله : تغنّى ، انتهى كلام ابن أبي الإصبع . (٣)

(أ) كذا ورد الاسم في (الأم ، أ ، ب) ، وفي النسخة المطبوعة : " إبراهيم بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك " . وهو الأصوب .

.....

(١) إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي القرشي أمير المدينة المنورة وخال هشام بن عبد الملك اشتهر بشدته وعتوه ، توفي بعد سنة ١١٥هـ . المحبر ٢٩ .

(٢) ترجمته : صـ ١١٤ .

(٣) تحرير التحبير ٤٠٤ .

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته على هذا النوع يقول فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم :

هو النبيُّ الذي آياتُهُ ظهرتْ ... من قبلِ مظهرِهِ للناسِ في القِدَمِ

وقد تقرر قولي : إنني لم أكثر من شواهد هذا النوع ليظهر فيه من أحرز قصبات السبق من نُظّامِ البديعيات . والعميان لم ينظموا في بديعيتهم هذا النوع ، وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعيته يقول فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم :

والله هذّبه طفلا وأدّبه ... فلم يحل هديه الزّاكي ولم يُرَمِ

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم :

تهذيبُ تأديبهِ قد زادهُ عِظَمًا ... في مهدهِ وهو طفلٌ غيرُ منفطمِ

هذا البيت يشتمل - ببركة مَنْ أدّبه ربّه فأحسن تأديبه وهو الممدوح صلى الله عليه وسلم - على عشرة أنواع من أنواع البديع ، أولها : النوع الذي هو الشاهد عليه وهو التهذيب والتأديب ، والانسجام والسهولة ، والتورية بتسمية النوع ، والتتميم ، والتكميل ، والإيغال ، والائتلاف والمبالغة ، ولو لا الخوف من الإطالة لذكرت كل نوع في موضعه ، ولكنْ في نظر أصحاب الذوق السليم من علماء هذا الفن ما يُغني عن ذلك ، والله أعلم .